بسم الله الرحمن الرحيم

الزملاء أعضاء مجلس المجمع،

أيها الحضور الكريم،

لكم السلام والصّبح الذي تـــنفّس، "والضّـــحى واللّيـــل إذا ســـجى"، والعربيّة التي خرجت معكم هذا اليوم، طيباً وسلاماً، وحين رأت شوارعنا غضّت طرفها وهي التي تعوّدت منا أن نتذكرها صباح مساء، وأن ننشد لها:

وما انسَدّتِ الدّنْيا علـــيّ لضِـــيقِهَا ولكنَّ طَرْفاً لا أراكِ بـــهِ أعمَـــى
هَبيني أخذتُ الثأرَ فيكِ منَ العِـــدا فكيفَ بأخذِ الثأرِ فيكِ مـــن الحُمّى

والحمّى أمراض أصابت العربيّة في زماننا؛ وهي أشكال من الحمى:

حمّى أبي الطيّب التي لا تزور إلا في الظلام،

وحمّى الشنفرى التي "إذا وَرَدَتْ أصْدَرْتُها ثمّ إنّها...".

فهل أصابتنا نحن وذهبت بالبصيرة، ولوعة الوجد، وحنين العذريين، ووجد الصوفيين، وصولة الفرسان، وحداء الفلاحين...!!

العربيّة التي نحن بحقّها مقصّرون!

العربيّة التي علّمتنا أن "بالشّام أهلي، وبغداد الهوى"!

وها هي في أزمة مجتمع عربي مأزوم بالهموم، مثقل بحروب القبائل والفصائل، ومتخلف عن حركة الحياة، العربيّة التي تحاصرها العاميّـــة، والأميّة، واللغات الأجنبية، والجامدون والجاحدون.

كأنها تقول لنا:

"ولو أن قومي أنطقتني رماحهم...".

ثم تصمت،

و"تنصبُ للجرْسِ الخفيِّ سوامِعاً..."

لكن لا صوت ولا نداء، إلّا هذه الأصوات الخافتة من طلبة صـــغار يحفظون سُوراً من كتاب الله العزيز، ويحبّون العربيّة والخط، ومعلـــم لا يُحبّ التدريس، أو غارق في أحلام اليقظة، وعاجز عن تحقيق حلمه بأن يتكلّم لغته بوضوح.. أيّ أناس نحن!!

أتعرفون لماذا اخترق المغول والصليبيون بلادنا: يوم جهل الأمراء، وفسد العلماء، وغاب التعليم والثقافة والشهادة، وتحوّلت اللغة على ألســـنة بعضهم إلى وسيلةٍ للكسب، أو للنفاق، أو للضياع في أفكارٍ بعيـــدةٍ عـــن الواقع، وكأنّنا في "المسرح اللامعقول"، أو حالة من العبـــث، والضـــعف، والضيّاع.

أيّها الأعزاء،

في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلّم قوله:

" الناس من شجرٍ شتّى

وأنا وجعفر من شجرة واحدة".

فهل نحن من شجرِ العربيّة!!

عندما وصل جيش مؤتة إلى معان، كان النشيد شعراً وعلى لسان ابن رواحة، وكان جعفر يحشد اللغة، والآيات الكريمة، وهجرته إلى الحبشة، وعودته يوم خيبر، كان يستعد لمؤتة.. لم يكن أعرابياً أو وارثاً لقـريش، كان مؤمناً يحمل الراية التي لن تنحني، فأسندها بكفّيه، ثم بساعديه، ثـم بعضديه، حتى تسلّمها القائد الثالث..

ولا أظنّ الحسين في كربلاء كان على غير هذا، فالظلم ليـلٌ بهـيم، والحق أبلج، والشهادة صعود وارتقاء وليست سقوطاً... لقد تعلّـم وعلّـم وحضر، وما غابت الروح الكربلائية عن بني هاشم حتى زماننا هذا.. .

سيخرج المسلمون بعد الصّدام الأول أكثر تصميماً على تغييـر ذاك العالم "الخراب"، كأن موسى بن أبي الغسّان (فارس غرناطة وشـهيدها) يخلّف فينا وصيته:

"سأختار السبيل الذي يخلّصني من الذل والعار، ولكنّي أُشفق علـى أمّة محمد العظيمة من أن يُقال: إنها خشيت الموت دفاعاً عن غرناطة!!

ومثله الإمام شامل، ومحمد الفاتح، وألب أرسلان، ويوسف العظمة، وكايد المفلح العبيدات... إلى زماننا هذا.

لستُ بصدد إعادة ما في كتابي "عن الشهداء القادة" –أعني "منـازل الأرجوان"– لكنني أسأل:

هل نأى الناس بأنفسهم عن العربيّة كأنّنا لم نعد نعلمهم مـا يشـكل جمرها شهادة وعشقاً وسلْماً وحرباً في نفوس الناس!!

هل نقدم لهم "الكلام الخشبي" الذي لا رواء فيه..

هذه اللغة حياة لا مادّة جاهزة للآلي من التفسير والتأويل والجامد وغيرها من طرائق التفكير.

أظنّ أنني –وللمرة الأولى– وفي هذا العمر– أكتشف لذّة العربيّة وبهجتها ووردها حتى حين تبكي أو تهزّ وجدان الشّجي وتُبكي عين الغريب.

هنا نصرّ على أن العربيّة هي أم الثقافة والتاريخ لأنّها وعاء حضارتنا، ولا نرى الثقافة مجرّد غناء ورسم وشعر وتراث شعبي... هذا منها لكن شرطها الأول أن كلّ شيء نقرؤه يكون باسم الله.

أعيد السؤال فقط!!

إنه سؤال ثقافي على عتبات امتحان الكفاية.. فالثقافة روح، ولها مصادرها في الوحي أولاً، ثم في الناس (العقل والوجدان)، ثم في الرسالة والنبوّة.. وهي وحدها ما يمكن أن يحرّك الميّت فينا حتى يستوعب معركة مثل مؤتة فيتخرج منها في يومين: ذو الجناحين، وسيف الله المسلول!!

وسنظل عاجزين عن إصلاح حال العربيّة لأن المستبدّ لا يريد الحديث بلغة العدل والحريّة، والمنافق لا يريد الحقّ والثبات، والعاجز لا يحبّ الشجاعة... لذلك يهزأ من فرساننا من عنترة إلى سيف الدولة.. بل والنابغة:

وثقتُ لهُ بالنّصْرِ إذْ قِيْلَ قد غَزَتْ كَتائِبُ من غسّانَ غيرُ أشَائِبِ
إذا ما غَزَوا بالجَيْشِ حلّقَ فَوْقَهم عَصائِبُ طيْرٍ تهتدِي بعصَائِبِ

فمتى تسير الكتائب إلى القدس، لأن كلّ حرب لا تسعى لتحرير فلسطين هي نموذج لخيباتنا وخساراتنا.

الثقافة هي الجدار الأخير،

والعربيّة هي حجارة هذا الجدار،

هي "الرّبض" التي بناها الأيوبيون في حربهم لتحرير أرض الأمّـــة وقد فعلوا.. فاقرؤوا الفاتحة لصلاح الدين/ يوسف بن أيوب.

* * * * *

إننا بانتظار المدّ، أمّا الصحوة فهي موجودة، وإن كنتم لا ترون ذلك فقولوا لي: ماذا تفعل ستة آلاف مدرسة وستة آلاف مئذنة في الأردن!

(قيل إن مقاتلاً إسلاميّاً في إحدى معارك الفتح قطع الروميُّ رجلـــه بضربة سيف، وبدت معلّقة بخيط رفيع، فتناولها (صاحبها) وضرب بهـــا الرّومي وقتله!!)

وهناك شعر في رثائها..

أمّا نحن، فكم قطعت أرجلنا وجلسنا مع ذوي الحاجات الخاصة ننتظر صدقة الحكومات إن تذكرتنا ذات يوم... وهي مثلنا فقيرة وعاجزة، لكنّها تصرّ أن تحكُم.

فأعيدوا النهر العظيم إلى مجراه..

لغة، وبلاغة، وشعراً، وتاريخاً، وفلسفة، وتفسيراً، ومعاجم، وترجمة، وتعريباً..

واملؤوا هذه الإذاعة الوحيدة في أرض الأمـــة بالفصـــيح والنبيـــل والجميل، وساعدوها حتى نعيد (بالقانون) ألق هذه الشوارع والجامعـــات والصفوف إلى زمان العربيّة..

أعرف أنّها أزمـــة أمّـــة يســـوس معظمهـــا رأس المـــال النفعـــي، والبورجوازيات التابعة، وبقايا آثار الاستعمار وتلاميذه..

لكنّنا في حال أفضل إن تعلّمنا أن علينا تعليم الحرية للمضـــطهدين، وجعلنا الثقافة رسالة قوميّة، وحملنا اللغة إلى العالم كلّه، وها هو يغزونـــا فنصدمه بالعاميّة والفوضى الكلامية...

أمّا المجمع فهو بخير، وقد فتحنا الأبواب كلّها للإصـــلاح الهـــادئ، ونتحمل مسؤولياتنا (مجلس المجمع)، و(المكتب التنفيذي) وسائر العاملين هنا..

ونحن في الطريق إلى توسعة مهمة في العمران، وإعادة نظـــر فـــي حاجاتنا من القاعات وغرف التدريس والمدرجات، فقد حصلنا على موافقة تحصر امتحان الكفاية اللغوية الوحيد بنا مع لجان وطنية، وعلى خطة تمّ إقرارها لنبدأ تعليم العربية للناطقين بغيرها.

كما أنّنا نخطط ضمن دراسة واســـعة، لتأســـيس مركـــز لدراســـات الحوسبة ذات الاختصاص بالعربية، وإصدار مختارات من روائع التراث، وستة معاجم جديدة....

نشكو من هِنات هنا وهناك، ومن جمود في بعض المفاصل، ومـــن تردّد لا نحبّه، ونثق أن بعضنا يعدّل من طرائق بعضنا الآخر بـــالحوار، لأنّ المجمع يشرق في أرض العرب ونحسّ بهذا ونسمعه ونراه، فعلينا أن نعيد تنظيم أنفسنا، ونعيد الهيكل التنظيمي (وهذا مصطلح لا أحبّه) حتـــى يسير العمل –بعد رفده بكفاءات جديدة– بيُسرٍ ومنهجية دقيقة.

أيّها الأعزاء،

لمثل هذه الغاية (الوطن العربي النقيّ بروحه ولغته ورسالته) يسهر من أهل العلم المخلصون، بينما يصدّهم عن الغاية من كان "كذوب القالَــةِ نموم الإطالة" كما يقول المعرّي... لمثل هذه الغاية نحــسّ بشــيء مــن الغضب والتقصير معاً، فنحن هنا مواطنون (بارك الله لهم فــي ســعيهم) يحاولون خيراً، وإن عجزت الوسائل عن الوصول إلى الغايات فعــذرُهم أنّهم حاولوا بشرفٍ وصدق وأمانة.

أيّها الأعزاء،

أخشى ألا يمنّ علينا الزمان بما يكفي لإصلاح ما نريد، وأن نستعيد بيت المعرّي:

إن مسّكم ظمأٌ فقــولُ نــذِيركُم لا ذنبَ لي، قد قلْتُ للقومِ: اســتقُوا

ونحن ندرك فوضى التخطيط اللغوي الــذي نحــاول ضــبطه فــي المجمع، ونعرف صلة ما ندرس بالهوية، والإبداع، والتعليم، والتعريــب، لكنّنا نحتاج إلى طاقات جديدة من أجيال تناضل من أجل نصرة العربيّــة، وتستطيع توظيف التقنية لصالحها، بل وتخوض معاركها ضد من تخلّــوا عنها لصالح عاميتهم ومصالحهم.

ويمكن ترجمة حالنا بين الذي تعتريه الدهشة، والّذي ينكفــئ علــى نفسه، وكلاهما –لو سئل– لأعلن محبته للعرب والعربيّة، لكنه لا أرضــاً قطع، ولا ظهراً أبقى... ولو طلبت إليه تأويل قول المتنبي:

قصدنا له قصدَ الحبيــبِ لقــاؤُه إلينــا، وقلنــا للســيوفِ هُلُمِنــا

وتاه في أفكاره، ولم يخطر بباله أن يراجع القصيدة كاملة، ولو فعل لعرف أنّها في الحرب.

ولو سألنا آخر من هؤلاء المتنطعين عن الألوان في بيت أبي تمام:

تردّى ثيابَ الموتِ حُمراً فما دجا لها اللّيلُ إلاّ وهي من سندسٍ خضرُ

لصال وجال، واستحضر التناص، وضيّع سِحْرَ البيت، وظلّ باب دهشة الاكتشاف موصداً دونه، ومثل هذا كثيرون.

أعود للعربيّة،

أجمل الكائنات في تاريخنا،

فهل نهبها للنسيان أم للحياة!!

وهل تغرب شمسنا وهي مورقة وراسخة أم تسبقنا غضباً منّا، وعلى مصائرنا.

آنذاك أمام أي بابٍ نقف:

- باب الله
- باب الحلم
- باب السلطة
- باب الشعب،

ورغيف خبزنا معلّق عند باب الله العلي القدير، وإن ظنّت السلطة أنها تملك رزقنا، وأنهم ظلّ الله على الأرض، وغابت عنهم فكرة الاستخلاف الإلهية، فإلى أي جدارٍ أو شعبٍ أو غارٍ نلجأ، إن ضاقت بنا اللّغة والحال، وأصابنا غبار الغفلة والنسيان والجهل بالعشى والضياع.

أيّها الأعزاء،

هذا الموسم لكم،

والمؤتمرات لكم،

وصباحات أطفالنا كل يوم سبت تحية لكم،

والإذاعة الجديدة المختلفة بالصوت والكلام لكم،

ونحن على الطريق سائرون...

قد لا نطيل الوقوف،

وقد نقول في مناسبة قادمة: آن وقت الرّحيل..

لكن هذا المكان العامر بكم

"لا يُنْسَى ومثلنا لا يَنْسَى"

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته